

المؤتمر السنوي السادس فلسطين... رؤى إستراتيجية سياسية



المركز الفلسطيني للبحوث والدراسات الإستراتيجية - مسارات
The Palestinian Center For Policy Research and Strategic Studies - MASARAT

تحديات ومقومات النهوض في القدس

محمد جاد الله

(هذه الورقة مسودة، ليست للنشر أو الاقتباس)

شركة المشروبات الوطنية



مؤسسة الناشر



الدكتور

محمد مسروحي

الدكتور

نبيل قدومي



شركة خان العمدان للاستثمار السياحي



بنك القدس
Quds Bank

الرعاة:

تشكل هذه الورقة محاولة لاستشراف مستقبل الفلسطينيين في القدس، في ضوء التطورات السياسية المتلاحقة والجارية في المنطقة، وخصوصاً في ظل إجراءات التهويد المسعورة التي تقوم بها قوات الاحتلال الإسرائيلي. إن أوضاع الفلسطينيين في القدس ومواقفهم وتوجهاتهم وتصوراتهم لمصيرهم السياسي، تركز إلى ثوابت محددة وتتأثر بمتغيرات رئيسية جمة. والثوابت المحددة هي أن :

_ القدس في الوجدان الفلسطيني هي العاصمة السياسية والثقافية وهي التي تحتضن الأماكن الدينية الإسلامية والمسيحية، وأنها جزء لا يتجزأ من الأرض الفلسطينية المحتلة.

أما المتغيرات فهي واسعة وعديدة وتتمدد كل يوم بقسوة ما يجري في ما كان يشكل الحاضنة العربية وربما الإسلامية، وإسقاطات التداخيات السلبية الخطيرة للمتغيرات الدولية والعربية على القضية الفلسطينية، وقوة إرهاب العدو الإسرائيلي وتغوله في القتل والاعتقال ومصادرة الأراضي والأموال وإلغاء الإقامة والتهجير وفرض الضرائب. ويشكل الموقف الرسمي الفلسطيني بما فيه موقف فصائل العمل الوطني الأخطر والأكبر تأثيراً على الحياة اليومية للمقدسيين.

يدرك المواطن الفلسطيني في القدس حجم ومعنى انحسار وتراجع القضية الفلسطينية في الوجدان العربي الشعبي، وانكشاف زيف ادعاء معظم الأنظمة العربية التي كانت توهم الفلسطينيين بأن قضيتهم هي قضية الغرب الأولى. وانسحب هذا الانكشاف على الموقف من القدس وتجلّى أخيراً في الموقف من الصراع على المسجد الأقصى.

هذه المتغيرات تحدد أوضاع وتوجهات الفلسطينيين كافة أينما وجدوا، بحيث أننا لا نجد فروقات جوهرية بين موقف الفلسطيني المواطن في مدينة القدس، وبين الفلسطيني في أي مكان في العالم. كل ما في الأمر أن المواطن المقدسي يتصارع يومياً مع هذه المتغيرات ويقف على رأسها الصراع اليومي مع الاحتلال وأذرعته العديدة، وأن صورة المواطن المقدسي هذه تشكل الصورة الحقيقية والصورة الشاملة والمتكاملة لما يمكن أن يشكل قاعدة لتصورات المستقبل له ولجميع الفلسطينيين.

وإذا ما أخذنا في الاعتبار مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، واحتمالات التطورات السياسية واحتمالات الحروب في المنطقة، فإننا لا نرى أن المستوى البنيوي يفي بغرض فهم الحالة المقدسية، بل ينال التركيز على المستوى الفردي والذاتي أهمية خاصة لما يظهره من قيمة فهم العمل الإنساني من وجهة نظر الفاعل نفسه.

القدس باتت مدينة تقطعت أوصالها إلى أحياء متفرقة وجماعات مفككة ومعزولة عن محيطها، وغير مرتبطة بخصائص المدن الطبيعية، ولم تعد صالحة لتكون عاصمة للدولة الفلسطينية المنشودة. فبغض النظر عن مكان سكناك في المدينة، فأنت تحتاج إلى ضعف الزمن الذي تحتاجه في أي مدينة في العالم كي تصل إلى مكان عملك. والأهم أن المشهد الطبيعي للمدينة صار مشهد الحواجز العسكرية والدوريات الراجلة والمحمولة إلى جانب عنف البؤر الاستيطانية التي تستنز مشاعرك وتدخل الكآبة في كيانك ولا تملك نفسك على ترويضها في استقبال هذه الكتل الحجرية المنفردة.

وبرغم كل هذه المظاهر القهرية، فقد فشل الاحتلال فشلاً صاعباً ومدوياً في ترويض الفلسطيني المقدسي ومحاصرته وإجباره على الخضوع والإذعان وتقبل الواقع وكأنه القدر. إن أي مظهر يبدي سمة التكيف مع الواقع لم يكن في الحقيقة سوى التكيف الهادف إلى تغيير هذا الواقع. وما القرارات البسيطة والمواقف الفردية إلا سلسلة متصلة من مسيرة جماعة إنسانية تراكم التجارب والخبرات تتفاعل مع الواقع بإبداعات جديدة بغض النظر وبرغم إرهاب الاحتلال وبلغه وبرغم غياب الإسناد للحركة المقاومة فردية كانت أم جماعية.

دشّن الرابع من تموز لهذا العام 2017 نهاية مرحلة وولادة مرحلة جديدة. فقد انتهت مرحلة فصائل العمل الوطني التي قادت الصراع مع الاحتلال أكثر من نصف قرن، وبدأت مرحلة جديدة أو متجددة تتمثل في أن الجماهير قد أخذت زمام المبادرة وتقود نفسها بنفسها دونما حاجة إلى طرق وأدوات عمل الفصائل التقليدية.

وجدت الجماهير الفلسطينية في القدس في الاعتداء على المسجد الأقصى هدفاً اجتمعت عليه وحوله، واحتلت الشوارع لإسقاط الإجراء الاحتلالي الأخير المتمثل في فرض السيادة المطلقة على المسجد الأقصى.

لم تكن الحركة الجماهيرية في حاجة لمن يدلها على معني العدوان ولا على النوايا والمرامي الصهيونية، ولم تكن في حاجة لمن يحدد لها الهدف، ولم تكن في حاجة لاستخدام الأدوات البالية في مواجهة الاحتلال مثل البيانات والمذكرات والمؤتمرات الصحفية. ببساطة شديدة وجدت أنها عندما تخرج إلى الشوارع شيباً وشباناً، نساءً وأطفالاً فإنها تفرض إرادتها على أية قوة استعمارية مهما علت وتغولت ومهما بطشت.

الهدف واضح والاستعداد للتضحية بالنفس ماثل بين الأعين، فحققت مرادها وأجبرت عدوها على التراجع.

وكان المشهد الجماهيري الصاخب والصدور العارية التي اقتحمت بوابات المسجد الأقصى حاملة روحها على أكفها عنوان المرحلة الجديدة. لم يكن هذا انقلاباً في مزاج الجماهير، ولم يكن أمراً استثنائياً، ولم يكن اندفاعاً عفويًا عاطفياً ولحظياً، إنما جاء لعدد الأسباب نذكر منها:

- تراكم الخبرة الفردية والجماعية في مواجهة إجراءات الاحتلال الصهيوني، فلا يوجد فرد مقدسي واحد لم يتعرض للاعتقال أو التنكيل أو الإهانة، المعاناة مصدر الوعي.
- انفض الناس في القدس غن فصائل العمل السياسي منذ سنوات بعيدة، ثم نفصوا أيديهم من السلطة الفلسطينية التي عجزت عن توفير الحماية والرعاية لهم.
- نفص الناس أيديهم من الأنظمة العربية والإسلامية، ومن معظم الشعوب العربية التي نسيت فلسطين والقدس لاعتقادهم أن الفلسطينيين نسوا قضيتهم.
- تحرر المقدسي من حالة الانبهار بالعدو والخوف من جبروته وإرهابه. وتحرر من صورة الضعيف التي تستحبها القيادة الفلسطينية وتريد أن تجعل من الضعف قيمة مستحبة، وأن الضعف يستجلب التعاطف. الناس في القدس لم يقبضوا هذه السياسة المدمرة، فغضبوا في وجه عدوهم برؤوس عالية لا تبكي ولا تشكو ولا تنتظر التعاطف.